

مضى على وجودي هنا سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام

إن الطريق الذي يؤدي إلى منزل باسمه في بغداد طريق مليء بالنفايات. ولدى وصولنا إليه وجدناها جالسة عند عتبه تحت الشمس وهي تراقب أحفادها الذين يعيشون معها بعد أن انقطعت الأخبار الواردة عن أبيهم لينضم إلى قافلة الأشخاص العديدين الذين فقدوا ولم ترد عنهم أية أخبار.

كانت باسمه التي يبدو أنها تتاهز الستين من العمر ترتدي لباساً أسوداً، وهو اللون الذي اعتادت على ارتدائه منذ عقود، الأمر الذي يدل على أنها في حالة طويلة من الحداد لفقدانها عائلتها.

رحبت بنا في البداية بتردد، ثم مضت في طريقها بتؤدة داخل البيت الطيني المكون من غرفة واحدة ذات شباك صغير وباب. لقد قامت بطلاء الجدران بالجبصين فيما كانت أرضية الغرفة مغطاة بفرش من القش مصنوعة من القصب العراقي. وخلف الجدار الذي تتكى عليه كان هنالك إطاراً يحتوي على صورة لأحد الأئمة، وعلى الجدار المقابل هنالك آية من القرآن الكريم موضوعة داخل إطار.

أما السقف الذي قامت باسمه بتشبيده لوحدها من خليط قامت بإعداده من الطين والتراب والقش، فهنالك جزء منه قد تداعى، وعلى الرغم من طلائها دعامة الأفقية بمادة سوداء لإبعاد النمل الأبيض عنها، إلا أن ذلك النمل قد تمكن من اجتياح تلك الدعامة.

وقد تحولت عباؤها السوداء لتصبح بنية اللون بفعل عوامل الزمن والبلى. ومشت باسمه حافية القدمين باتجاه كوم من القصب الذي قامت بجمعه وإشعاله لإعداد كوب من الشاي، وكانت يداها منهكتين نتيجة عملها الشاق في جمع الحطب اللازم للنار وفي الخبز وإصلاح منزلها، كدلالة على الأمور التي تفعلها لضمان أن يحيا أحفادها.

وتخبرنا باسمه أن منزلها يبعد ثلاثة كيلومترات عن أقرب مصدر للماء. "لدي قارورتان من البلاستيك أجمع الماء فيهما، إحداهما تتسع لحوالي عشرين ليترًا. وأقوم في بعض الأحيان

باستعارة الحمار الذي يمتلكه الجيران أحمل الماء عليه، إلا أنني في معظم الأحيان أحمل الماء بنفسى، تقول باسمه مضيئة أن "الظروف هنا سيئة للغاية؛ حيث لا يتوفر الماء ولا الزيت ولا حتى وقود كاف، الأمر الذي يجعلني مضطرة للجوء لاستعمال الحطب خلال أوقات الشتاء. ومنذ وفاة زوجى لم أعد أتسلم أي راتب تقاعدي. إننى أفعل كل شيء بنفسى".

وتتحدردمعة صغيرة فوق وجنتها فيما هي تقوم بحمل حفيدها الذي يجلس بالقرب منها لتضعه في حجرها. وكان حفيدها النحيل مرتديا كنزة خفيفة لا تقيه حدة برد الشتاء ولا حر الصيف. وكان يمص أصبعه، وهو أمر علمنا فيما بعد أنه أصبح معتادا عليه منذ أن قتلت أمه مع جده وأبيه وعمه.

وتضطر باسمه للعمل طوال اليوم من أجل توفير لقمة العيش لحفيديها، إلا أنها تقول "أنهم في بعض الأحيان يضطرون للمبيت دون عشاء، إلا أنني أعمل في قطعة صغيرة من الأرض تم توفيرها لنا والتي تزودنا بالقليل من الطعام. كما أنني أقوم بجمع الحطب من أجل الحصول على بعض الدفاء وللقيام بالطهي".

وتكمل باسمه حديثها بنبرة لا تخلو من الأسى قائلة "قبل اندلاع الحرب، كانت الحياة أفضل بكثير. كنا نعيش في الحويدر في محافظة ديالى، إلا أنني انتقلت مؤخرا للعيش هنا. إننى أتمنى في بعض الأحيان أن يقبض الله روجى إلا أنني أراجع عن هذه الأمنية لدى التفكير فيمن سيعتني بأحفادي من بعدي، فأنا امرأة تتحمل مسؤولية كاملة تجاه أحفادها الإثنين. ولقد قمت بعد الأيام التي قضيتها هنا، وقد مر على وجودى هنا سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام".